صلة نيجيريا بالعالم الإسلامي

إن أواصر الرباط بين البلاد والقبائل كثيرة ومتعددة. أولها آصرة القرابة والجوار، وهي طبيعة لازمة لكل بلد وكل قبيلة نظرًا لما يتاخمها من الحدود في جهاتها الأربع.

غير أن موقع نيجيريا في القارة الأفريقية لم يمكنها من مجاورة البلاد إلا في ثلاث جهات: جنوب القارة وشرقها وشمالها فحسب.

أما صلتها بالجنوب، وهي الجهات الموازية لبلاد بانتو، فهي مجهولة غير معروفة في الأساطير والتواريخ.

أما صلتها بالشرق والشمال داخل القارة وخارجها فمسموعة من الأفواه، ومسجلة في التواريخ، وهو على أربع أواصر.

أولاها: آصرة التجارة

وهي التي فتحها الفنيقيون والقرطاجنيون والروم بنحو ألف سنة قبل الإسلام. وقد تحقق أن هؤلاء التجار في الدنيا القديمة كانوا رسل الحضارة الإنسانية أينما حلوا وارتحلوا في الأقطار والبلدان، وكانوا يحملون من بلد إلى بلد ما يزيد على حاجات أهلها من الأثاث والملابس والأدوات. من ذلك ما يقال أن الفنيقيين والقرطاجنيين هم الذين حملوا صناعة الزجاج الملون والحديد والنحاس والأواني الفخارية وزراعة القطن والنسيج والحياكة إلى غرب أفريقيا. وإليهم يرجع آثار ما اكتشف أخيرًا في مدينتي إليفى وبنين من صناعات الفن التصويري التي ورثها منهم البرابرة الأولون.

أولئك الذين مهدوا الطريق للفتح الإسلامي منذ القرن الأول الهجري، حتى تمكن العرب والبربر وسائر الملثمين من ربط غرب أفريقيا بشمالها، وتمكنوا من تأسيس جالياتهم في عواصم «غانة ومالي وتمبكتو وأكدز وكانو وبرنو وكانم» وهي البلاد التي بها جاليات عربية تقيم أسواقًا شبه دولية تحضرها القوافل بمختلف أنواع السلع الرائجة في تلك القرون السالفة من أنواع الملابس والأواني والأدوات والأسلحة.

ومن آثار ذلك استحضار إدريس ألوما صاحب برنو الأسلحة النارية من البلاد التركية.

وآخر ما يعرف من هذا النوع هو صلة السوريين واللبنانيين التي بدأت منذ ١٨٩٠م، حتى كونت جالية معتبرة في كثير من أقطار غرب أفريقيا. ولهذه الجاليات المذكورة آثار طيبة في دفع عجلة البلاد إلى الأمام والتقدم. ولقد ساهمت الجالية السورية في تحقيق عدة مشاريع إسلامية في نيجيريا. وكان لشركة الدبس وإخوانه أثر ملموس في إنشاء مركز التعليم العربي في أغيغي، وذلك بعناية الأخ المجاهد عدنان مصطفي الدبس وإخوانه في لاغوس وكانو، كما كان لهم آثار في تعمير الكليات الإسلامية في لاغوس قبل استقلال نيجيريا.

ثانيها: آصرة الديانة

وترتبط بزيارة مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، أو زيارة المدينة المنورة للصلاة في روضة الجنة في هذا المسجد النبوى الشريف، ثم السلام على هذا النبى الكريم وعلى صاحبيه أبي بكر وعمر رضى الله عنهما.

والحج أحد أركان الإسلام الخمس يأمل كل مسلم أن يكمل به دينه، بل يشتاق إلى زيارة هذه الأماكن المقدسة الطاهرة، مهبط الوحي والتنزيل حيث ولد النبى ﷺ وأصحابه الكرام رضي الله عنهم، وتقلبوا على أرضها، وعاشوا بها حتى ماتوا ودفنوا فيها، وتشرفت هذه الأماكن بفضل وجودهم فيها.

تلك أمنية كل مسلم في كل قطر، وفي كل مصر، بل وهي فريضة يتحين فرصة القيام لأدائها، ويدخر لها الأموال والأعراض، ليستطيع بها إلى ذلك سبيلا.

وإذ لابدّ له أن يجتاز الأقطار الإسلامية وعواصمها في طريق ذهابه وإيابه، صار من الضروري أن يلتقي بثقافات أدبية، وتقاليد دينية يستفيدها من تلك الأقطار فيعود بها إلى وطنه.

لقد فتح الحج طريق الاتصال بين غرب إفريقيا وبين الجزء الأكبر من العالم الإسلامي. كما هيأ أسباب لقاء عدد من المسلمين الحجاج الذين وفدوا من مختلف أنحاء العالم إلى مكة المكرمة، وهيأ أسباب الاستفادة منهم علميًا وأدبيًا وثقافيًا.

وهذا منسا موسى الذي أحضر أبا إسحاق من حجه لعمارة قصره ومساجد بلاده على الفن العربى الجميل.

والمذهب المالكي إنما انتشر في المغرب بعد رجوع أسد بن الفرات من الحج، وبعد قراءته الموطأ على ابن القاسم تلميذ مالك بمصر.

والطريقة القادرية البغدادية إنما دخلت إلى شمال إفريقيا وغربها بعد رجوع الشيخ أبي مدين الأندلسي المغربي من الحج. ومحمد بن تومرت هو

الذي أدخل كتب الغزالي إلى المغرب. وبالجملة فإن أكثر الحجاج كانوا يعودون إلى بلادهم بما يستفيدونه في حجهم من ثقافات وحضارات حتى توهم بعض المؤرخين الإفرنج أن لكل حركة إصلاحية في غرب إفريقيا صلة وثيقة بسفر الحج وذلك حكم استقرائي لا يجوز القطع بإطلاقه على العموم. إذ قد وجدت حركات إصلاحية كثيرة قامت من صميم المغرب، ولا صلة لها بالمشرق «ولا يجوز القطع بدليل قياس الاستقراء والتمثيل».

ثالثتها: آصرة الثقافة

وهي تابعة لآصرة الدين، الآنفة الذكر، وتعتمد على طلب العلم المفروض على كل مسلم. وكان اتصال مسلمي نيجيريا بمصر وشمال إفريقيا والحجاز من أجل التعلم اتصالاً قويًا، حتى صارت هذه البلاد تضاهي تلك البلاد في العقيدة والمذهب ومنهج الحياة والتعليم، إذ كان طلاب العلم يرتحلون لطلبه إلى القيروان وفاس وطرابلس وتونس، كما يتدفقون إلى الأزهر الشريف بكثرة، حتى أدى إلى تخصيص رواق لهم فيه يعرف (بالرواق البرنوي). ويتلقون من فحول الأدب وأعلام الإسلام الذين سعدوا بلقائهم في الحج، كما يأخذون من الرحالين الذين يمرون ببلادهم لقصد الحج أو للسياحات.

رابعتها: آصرة السياسة

وهذه أضعف تلك الصلات كلها وأوهنها، إذ لم يكن لأي ملك عربي أو مسلم من الخارج سيطرة أو نفوذ على هذه البلاد. وكل ما كان من النفوذ والسيطرة إنما هو محدود بين السودانيين أنفسهم فقط. وقد حاول مؤخراً مولى زبير باشا حاكم بحر غزال من قبل مصر، حاول أن يستولي على برنو سنة ١٩٠٠م ولكنه فشل باصطدامه مع القوات الفرنسية.

أما صلة الصداقة بين الدول والملوك، فقد سجل التاريخ من ذلك رسائل لم يوضح مقدار ما عثر عليه حتى الآن. ولم يزل الباحثون يوالون جهودهم في التنقيب، من ذلك ما كان بين سلاطين برنو وملوك تونس الحفصيين، أو ما ذكره السلطان بللو من رسالة سلطان المغارب إلى الشيخ عثمان بن فودي -وسيأتي نصها في محلها-، أو ما كان قبيل سقوط الدولة العثمانية التركية من إنعام درجة البكوية على السيد محمد شتا، أحد أعيان مسلمي لاغوس ١٨٩٣م، وذلك بمناسبة افتتاح مسجده الجميل الذي بناه من جيبه الخاص، وأحضر لبنائه مهندسًا تركيًا ليكون البناء على الشكل الإسلامي التركي.

وآخر ما حدث من ذلك بعد الاستقلال، هو فتح السفارات العربية وقنصلياتها في نيجيريا، وأولها القنصلية اللبنانية التي فتحت منذ ١٩٤٨م لمساعدة الجالية اللبنانية والسورية.

وأول السفارات العربية في نيجيريا هي سفارة الجمهورية العربية المتحدة، إذ فتحت على أثر استقلال نيجيريا، ثم سائر الدول العربية الباقية..

ولقد عملت هذه السفارات على حض حكوماتها لمساندة نيجيريا أيام محنتها وحروبها الأهلية مع (بياقرا) حتى النصر. كما أن لهذه السفارات مساعٍ خيرية كثيرة في توصية حكوماتها بمساعدة الهيئات الإسلامية، وبتوزيع المنح الدراسية على عدد ممن يرغبون في تعلم اللغة العربية، بالمعاهد العالية والجامعات الكبرى في البلاد العربية.

●●●

الثقافة العربية في غرب افريقيا

لا تكاد قدم الإسلام تثبت في بلد من البلاد حتى تتأثل ثقافته في أرضها، ولا تلبث حتى تظهر فيها مدرستان عربيتان، أولاهما: المدرسة القرآنية للصغار، وثانيتهما: مدرسة العلوم للكبار (المعاهد).

تفتح المدرسة القرآنية (الكُتَّاب) لأطفال المسلمين، لكي يرتادوها صباح مساء في بيوت العلماء أو الأئمة الذين يعكفون على تلك المدارس، ويلازمون أولئك التلاميذ حتى يكمِّلوا قراءة القرآن سردًا من المصحف أو حفظًا عن ظهر الغيب. وإذا ختموا القرآن أقاموا للختم وليمة فاخرة في المدرسة يحضرها زملاء التلاميذ ليشاركوه الفرح بهذه البراعة وليرغِّبوا الآخرين في الجد والاجتهاد حتى الختم. ثم يختار التلميذ ما يروقه من مسالك الحياة، أو يعود إلى مسلك والده، تاجرًا، أو زارعًا، أو صانعًا، أو عالمًا.

وكان أبناء غير العلماء يكتفون غالبًا بالقرآن فقط في هذه المدرسة. أما أبناء العلماء فإنهم يضيفون إلى القرآن تعلم الكتابة ومبادىء التوحيد والفقه، ليكونوا من الصغر على بصيرة من أمور دينهم الضرورية، وليفهموا ما يقولون في صلواتهم اليومية من أذان وإقامة وتهليل وتكبير وتشهد وتسبيح وقنوت. وقليل من أبناء غير العلماء من يجمع بين ذلك وبين قراءته القرآن. وقليل من لم يدخل مدرسة القرآن من أبناء المسلمين وإن لم يختموه.

أما أبناء العلماء والمتعبدين فلا يكتفون بختم القرآن وبعض مبادىء الدين، بل يستمرون في طلب العلم حتى يكونوا على قسط منه وفير، أو حتى يكونوا علماء ماهرين. على أن التزام الإسلام للعربية في تأدية الصلاة وفي التعبد بتلاوة القرآن خارج الصلاة، جعل لها قدسية كبرى في نفوس المسلمين، وجعلهم يعتبرون تعلمها ومعرفتها فضلاً وشرفًا وسعادة ودرجة، أو دينًا وعبادة.

منهج التعليم في مدارس القرآن:

المنهج المتبع في مدارس القرآن قريب من منهج أهل المغرب العربي الذي ذكره ابن خلدون في المقدمة بقوله: «أما أهل المغرب فمذهبهم الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث وفقه وشعر، ولا من كلام العرب، إلى أن يجاوزوا البلوغ إلى الشبيبة» وهي طريقة قريبة إلى طريقة غرب إفريقيا بتغير يسير.

وذلك أنهم لا يخلطون القرآن بشيء من العلوم، بل يقدمون على استظهاره حفظًا، أو استطراده سردًا والاكتفاء بحفظ بعض السور القصار لتأدية الصلاة المفروضة، وربما يوجد في القليل من يضيف إلى القرآن دروسًا في التوحيد والصلاة، خصوصًا لبيوت العلماء المشهورين.

مدرسة العلم للكبار:

أما مدرسة العلم للكبار فإنها توجد في المدن الإسلامية الهامة، ويتصدى للتدريس فيها من تفوقوا في قواعد اللغة العربية وفي أصول

الشريعة الإسلامية، من الذين تخرجوا فيها من مدارس فاس وطرابلس وتمبكتو وجنى ومصر وغيرها من المعاهد والمراكز. على أن وحدة الدين والدولة بوءآ العلماء مكانًا مرموقًا بين الأمة، وفرض على الحكومة أن تضع العلماء في المناصب الرسمية كالوزارة والقضاء. كما أن قيام بعض العلماء بالجهاد الإسلامي جعلهم قواد الحرب وبناة الدول والحكومات، كما وقع في غانة ومالي وسنغى وبرنو وهوسا.

وذلك مما دفع الناس إلى ارتياد دور العلوم حتى نبغ منهم عدد لا يستهان به من الأدباء والفقهاء، خلّفوا لنا آثارهم العلمية تنطق ببراعتهم، وتترجم عن نبوغهم. فظهرت بفضلهم جامعات إسلامية في غانة القديمة ومالي وتمبكتو وجنى، بلغت أوج رقيها في القرن الثامن الهجرى، ولم تتقوض ولم تتدهور إلا بقيام الثقافة الإفرنجية الحديثة.

منهج مدارس العلم:

يخصص الشيخ في بيته مكانًا واسعًا يلتقي فيه مع تلاميذه كل يوم بالدوريات التي لا تقل مدتها عن نصف ساعة لكل تلميذ.

يجلس الشيخ على منبر مرتفع قدر شبر فيدخل كل تلميذ مع كتبه ليقرأ منها والشيخ يفسر له كل كلمة وهو يستمع ويعي، فإذا سبقه شريك له انتظر دوره واستمع إلى درس زميله والتقط من دروسه فوائد يضيفها إلى دروسه الخاصة. ومن الشيوخ من يجلس للدرس من الصباح إلى الظهر ثم ينصرف إلى عمل آخر يكسب منه معيشته كالزراعة أو الحياكة أو الخياطة أو الكتابة (الوراقة). ومنهم من يستمر في التدريس حتى الغروب ولا يقوم إلا للصلاة والغذاء والضروريات الأخرى.

وكتاب «تعليم المتعلم» الذي وضعه برهان الدين الزرنوجي من علماء القرن الخامس الهجري، هو الأسلوب والمنهج المتبع في تلك المعاهد والمدارس والكتاب نفسه مقرر على التلاميذ يدرسونه في السنوات الأولى للتعليم، ليجعلوه قانونًا ودستوراً يعملون بإرشاداته وتوجيهاته.

وأهم المواد المقررة من العلوم والفنون هي: التوحيد الأشعري، والفقه المالكي، والقصائد الوعظية، ومتون اللغة، كمقامات الحريري، ومختار الشعر الجاهلي، وقواعد النحو والصرف والبلاغة والعروض والقافية والتجويد والقرآن والتفسير والحديث والأصول والمنطق والفلك.

أما الكتب المقررة فهي الكتب المشهورة قديمًا في بلاد العرب، وربما أضافوا إليها بعض كتب أخرى من مؤلفات علمائهم.

وكانوا يقتصرون على المتون دون الشروح، ولا يأخذون منها إلا الشواهد فقط. وكانت العادة أن يدرس التلميذ في المادة الواحدة أهم الكتب المشهورة فيها، وإذا استوعب الكتب المشهورة في أكثر الفنون اللازمة، مثل النحو والصرف والفقه والتفسير، استأذن الشيخ أن يستقل ويدرس، وربما بعثه الشيخ نفسه إلى جهة معينة وأجازه التدريس فيما علم، على أن يراجعه فيما لا يعلم وأن يستوضحه ما أشكل.

●●●

أعلام الثقافة العربية في وادي النيجر

لقد أخذت وادي النيجر (غرب إفريقيا) من العلوم الإسلامية ومن الثقافة العربية قسطًا لا يستهان به، وظهر من نبغ من أبنائها كأبناء العرب، وألّفوا وشرحوا ونظموا ونثروا. وكانت كتبهم تضاهي أو تفوق أحيانًا مؤلفات بعض العرب في انسجام الأساليب، أو انسياق التراكيب.

ولقد فات كثير منهم من سجل التاريخ، كما ضاع أكثر مؤلفاتهم تحت أنقاض الأطلال، أو نسبت مؤلفاتهم إلى غيرهم جهلاً أو انتحالاً.

ولقد ذكر السعدى في «تاريخ السودان» من كثرة العلماء عددًا ما قد يخيل إلى الإنسان أنه مبالغة، حيث ذكر أن ملك مدينة جنى المسمى «كَنْبر» جمع يوم إسلامه أربعة آلاف ومائتين من العلماء ليعلن إسلامه بمشهدهم في منتصف القرن السادس الهجري. ومهما يكن في العدد من مبالغة فإنما يدل على وجود أهل العلم والعلماء بكثرة في هذه البلاد، ويدل على أننا لم ندرك من آثارهم إلا قليلاً، ولم نعرف منهم إلا ما ذكره الشيخ أحمد بابا في «تطوير الديباج» أو ما ذكره السلطان محمد بللو في «إنفاق الميسور». ولقد سمعت بكتاب: «ترقيق ما قسا في ذكر علماء بلاد هوسا» لأستاذي المرحوم آدم نمعج، ولكني لم أسعد حتى الآن بالعثور عليه. وإليكم ما تيسر من أسماء بعض العلماء إذ: ما لا يدرك كله فلا يترك جله.

علماء بلاد ونغارو تكرور:

منهم الشيخ عبد العزيز التكروري الأول، الذي ذكره السيوطي في معجمه.

والشيخ عبد العزيز التكروري الثاني الذي ذكره أحمد بابا في تطريزه.

ومنهم الشيخ عبد الرحمن بن زيتي الونكري، أول من نشر العلم في مدينة كنو.

ومنهم الشيخ الفقيه العابد محمد سافو الونكري، ذكره السعدي في تاريخه.

ومنهم الشيخ محمد بن محمود الونكري.

ومنهم الشيخ محمد بن أبي بكر الونكري، المعروف ببغيغ، ولد ٩٣٠هـ وتوفي ١٠٠٣هـ، ومن مشايخ أحمد بابا التمبكتي.

وهناك عدد من العلماء الوناكرة لم نسعد بمعرفة أسمائهم لطول العهد، وعدم اعتناء السابقين بتاريخهم، أو بضياع آثارهم العلمية.

علماء تمبكتو وجنى:

الشيخ أحمد بن محمد أقيت بن عمر بن يحيى الصنهاجي، جد أحمد بابا التمبكتي، حج ولقي السيوطي وخالد الأزهري، ولما رجع مكث مدة في مدينة كنو للتدريس فيها، وتوفي سنة ٩٤٣هـ عن ثمانين من عمره، وله مؤلفات.

والشيخ محمد أقيت بن عمر بن محمد قاضي قضاة تمبكتو توفي ٩٧٣هـ.

الشيخ عبد الله بن عمر بن محمد أقيت ولد ٨٦٦هـ، ودرس في مدينة (ولاتن) ومكث بها حتى مات ٩٣٩هـ، وله مؤلفات.

الشيخ محمود بن عمر بن محمد بن أقيت ولد ٨٦٨هـ، وتولى القضاء بتمبكتو، وحج عام ٩١٥هـ، ولقي المقدسي والأنصاري والقلقشندي توفي ٩٥٥هـ، وخلف ثلاثة أولاد: محمد وعاقب وعمر نبغوا كلهم في العلوم واشتهروا.

الشيخ «مورمغ كنكن» عابد، تقي، ورع دخل مدينة جنى في أواسط القرن التاسع الهجري، وأسرع إليه طلبة العلم حتى ضاق البلد بعلمائه ودعوا الله أن يخرجه منه، فسمع الدعاء بنفسه فخرج، ذكره السعدي في تاريخه.

الشيخ أحمد السحولية، وهو من أكابر علماء جنى، ومن أئمة الصوفية. يقول أحمد بابا أنه لم يقف على وفاته.

ومنهم الفقيهة أم هانيء بنت محمد العبدوسي، ذكرها أحمد بابا في تطريزه، ومحمد بللو في إنفاقه، وقال إنها ممن بشروا بظهور مجدد الإسلام عثمان بن فودي.

الشيخ أحمد بن سعيد سبط محمود بن عمر، كان وحيد عصره في العلم والعمل توفي ٩٧٦هـ.

الشيخ العاقب بن محمود بن عمر ولد ٩١٣هـ. وتولى القضاء في تمبكتو، حج ولقي الناصر اللقاني والبكري وغيرهم وتوفي ٩٩١هـ.

الشيخ أحمد بابا التمبكتي ولد عام ٩٧٠هـ في تمبكتو وتربى على علمائها حتى تخرج، وامتحن مع جملة من العلماء عام ١٠٠٣هـ على يد محمود زرقوني قائد جيش السلطان أحمد مولاي، سلطان مراكش؛ أثناء هجومه

على أسكيا اسحق، ملك سنغاي على مناجم الملح؛ فاتهم علماء جامعة سنكري على استنكارهم لفعله، وجمع العلماء وحبسهم ثم أرسلهم إلى مراكش فمات أكثرهم في الصحراء عطشًا، وأحرق بيوتهم فضاعت كتبهم ومؤلفاتهم..

ولما مات مولاي أحمد وتولى بعده مولاي زايدان، أطلق سراح أحمد بابا، وأفاد العالم الإسلامي بنتائج أفكاره، ومن مؤلفاته: «تطريز الديباج» وتوفي ١٠٣٨هـ.

علماء أهير وأكدز وتكده:

منهم الشيخ العاقب بن عبد الله الأنصماني المسوفي التكداوي، أخذ عن المغيلي وعن جلال الدين السيوطي في هذه البلاد، وله مؤلفات وتعاليق وفتاوى، وتوفي ٩٥٠هـ.

ومنهم الشيخ النجيب بن محمد شمس الدين التكداوي، شيخ شيوخ زمانه، شرح المختصر بشرحين: أحدهما في أربعة أسفار، وثانيهما في سفرين، له تعليق على «تخميس العشرينيات» للفازازي، و«المعجزات الكبرى» للسيوطي، أخذ عن أحمد سحولية وتوفي حوالى ١٠٠٦هـ.

ومنهم الشيخ الربانى والعالم الصمداني سيدي محمود البغدادي، ذو المناقب العديدة والكرامات الكثيرة وحيد عصره، قامع البدع والضلال، سلطان الطريقة وبرهان الشريعة. وكان أصحابه يجلونه كثيرًا حتى خلعوا عليه صفة المهدوية. فقام عليه علماء عصره وأنكروا عليه وأغروا به السلطان فجرى بينه وبين السلطان محاربة شديدة قتلوه فيها وفرَّقوا جماعته.

ومنهم الشيخ الحافظ مخلوف البلبالي دخل مدينة كنو وكاشنه وأكدز، واستفاد منه أهلها. وكان بينه وبين العاقب الانصماني نزاع طويل في المسائل الفقهية.

علماء باغرم وبرنو:

منهم العارف بالله أبو محمد عبد الله البرنوي، الذي تتلمذ له العارف بالله عبد العزيز الدباغ.

منهم أبو إسحاق إبراهيم بن يعقوب الكائمي الشاعر الأسود، الذي دخل على المنصور الوحدي فأنشده:

أزال حجابه عني وعيني ... تراه من المهابة في حجاب

وقربني تفضله ولكن ... بعدت مهابة عند اقترابي

ومنهم الشيخ البكري، شيخ شيوخ زمانه، أخذ الفقه والعربية والبلاغة في بلاد برنو، ثم ارتحل إلى الشيخ النجيب التكداوي ولازمه واستفاد منه، ثم رجع إلى بلاده، وكان أول من قام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه البلاد، له «نظم السنوسية الكبرى» وغيره.

ومنهم الشيخ ولديد، وهو عالم رباني من الصالحين المعتقد فيهم، ولد في برنو حوالى ٩٣٩هـ، ورحل في طلب العلم إلى أكدز وتمبكتو ونبغ هناك، ثم رجع إلى باغرم واجتمع بالشيخ والى بن الجرمي التاركي، وجعلا يدعوان الناس إلى الإسلام الصحيح، وسعى بهما إلى سلطان مي عمر، سلطان برنو وأحضرهما وقتل الوالي بن الجرمي فجرى دمه على كلمة

الشهادة، وأطلق سراح ولديد، فهرب إلى باغرم واستوطنها حتى توفي بها حوالي ١٠٠٢هـ.

ومنهم الشيخ سليمان الفلاني الذي استوطن باغرم لنشر العلم بها، أخذ عن الشيخ البكري وبرع في العلوم وأخذ عنه عدد كثير وتوفي ١٠٠٩هـ.

ومنهم الشيخ محمد الوالى بن سليمان أخذ أيضًا عن والده وعن البكري، ونبغ في العلوم. ومن مؤلفاته: «نظم النقاية للسيوطي»، ومن أشعاره المتداولة:

أوصيكم يا معشر الإخوان عليكم بطاعة الديان

وإنما غنيمة الإنسان شبابه والخسر في التواني

وهي نحو أربعين بيتًا يحفظها الطالب في أول دخوله المدارس العلمية في نيجيريا.

ومنهم الشيخ الطاهر بن إبراهيم المشهور بقيرمه، أحد تلاميذ البكري ومن مؤلفاته: «الدرر اللوامع ومنار الجوامع»، وله «نظم السنوسية الكبرى في ألف ونيف بيت، وتوفي ١١٦٠هـ.

ومنهم الشيخ محمد بن عبد الرحمن البرناوي، فقيه محدث، ومن مؤلفاته منظومته الأخضري في الفقه المالكي، نظمها سنة ١١١٩، ولم نقف على وفاته.

ومنهم الشيخ الفقيه أبو بكر الباكوم المعروف بابن آجروم، أخذ عن البكري. ومن أواخر علماء برنو الشيخ عبد القادر القرقري، إمام جامع

برنو، الذي ذكره له صاحب «المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب» قصيدة مدح بها العارف بالله محمد حسن ظافر الطرابلسي المتوفي ١٢٦٣، منها:

بلّغ تحية عاشق مشتاق وسلام ذي كلف إلى السباق

شمس الهدى بدر الدجى مروى الصدى بحر الندى المدني الإمام الراقي

أحييت من سر الطريقة ماعفا ونشرته في سائر الآفاق

ورميت عن قوس الطريقة فارتقى سر الحقيقة سائر الإعراق

علماء بلاد هوسا:

منهم القاضي محمد بن أحمد التادخني من علماء كاشنه، لقي المغيلي وزكرياء الأنصاري وعبد الحق السنباطي واللقاني والقلقشندي والنويري، توفي ٩٣١هـ وعمره ٦٣ سنة.

ومنهم الشيخ عبد الله ثقة الفلاني الكشناوي، فريد دهره، ووحيد عصره، طلب العلم في أكدز وفزان وتكده، ثم رجع إلى كاشنه وتصدى للتدريس بها، له منظومة في المواعظ والحكم، وهي في نحو ألف وخمسمائة بيت تسمى «عطية المعطي»، ولا ينقصها إلا كثرة الضرورات الشعرية. له مع شيخه البكري مناظرة في تكفير أهل المعاصي، حسب رأي البكري، وعدم تكفيرهم حسب رأي عبد الله الثقة.

ويقال أن عبد الله هذا أول من حفظ الصحاح الست في هذه البلاد. وفيه قال شاعرهم:

مدينة العلم عبد الله ذا ثقة وفي التعدد خذ من بعده عمرا

ومنهم الشيخ المكاشف المعروف بابن الصباغ، له شرح على العشرينيات وقصائد كثيرة.

ومنهم الشيخ محمد بن مسني، أخذ عن ابن الصباغ وبرع حتى ألف مؤلفات عديدة، منها: «النفحة العنبرية في شرح العشرينية»، و«بزوغ الشمسية في شرح العشماوية»، و«أزهار الربا في أخبار بلاد يوربا». ومن كراماته أنه لما هجمت قبيلة كورارافا على مدينة كنو وعثوا فيها فسادًا وطردوا منها أهلها دعا عليهم ابن مسني حتى وقع عليهم البلاء العظيم، فتفرقوا ثم عاد الكنويون إلى بلادهم وتوفي ابن مسني ١٠٧٨هـ.

ومنهم الشيخ عمر بن محمد بن أبي بكر الطبوي له تخميس على: «بانت سعاد وشرفها».

ومنهم الشيخ محمد الكشناوي الذي رحل إلى الشرق وجاور الحرمين مدة ثم رجع إلى مصر ولازمها حتى توفي بها ١١٥٣هـ، ذكره الجبرتي في تاريخه الكبير.

ومنهم الشيخ هارون الزكزكي شيخ شيوخ زمانه، أخذ عنه عدد لا يحصى.

ومنهم الشيخ رمضان بن أحمد، أصله من فزان استوطن زنفر حتى توفي بها، أخذ عن هارون الزكزكي ونبغ في العلوم الشرعية والأدبية، وأخذ عنه أعلام.

ومنهم الشيخ محمد مود الكشناوي صاحب كتاب «صرف العنان» ألفه عام ١١٨٦هـ لم نقف على وفاته.

ومنهم الشيخ علي جب، وهو عالم جليل، شرح لاميَّة الأفعال لابن مالك، أخذ عنه الشيخ جبريل بن عمر الذي صار بعد ذلك من جلة العلماء.

والشيخ محمد المقروري شيخ شيوخ زمانه، ومن تلاميذه النجباء الشيخ إبراهيم البرناوي، والقاضي شعيب، والشيخ عبد القادر بن المصطفى، ولكل منهم آثار ومؤلفات وتلاميذ.

ومنهم الشيخ جبريل بن عمر، شيخ شيوخ زمانه، أخذ عن الشيخ على حسب والشيخ محمد مرتضى وعن الأخوين أبي بكر بن الحاج عثمان وعلي بن الحاج عثمان حج مرتين، ولقي يوسف الحفناوي والمرتضى وأخذ عنهما.

وأخذ عنه الكثيرون منهم الشيخ عثمان بن فودي وعبد الله، وفيه يقول عثمان:

إن قيل في بحسن الظن ما قيلا فموجة أنا من أمواج جبريلا

وقال عبد الله يهنئه بعد رجوعه من الحج:

جبريل من جبر الإله به لنا دينًا حنيفًا مستقيم المنهج

شمس الضحى بزغت بغرب فانتهت للشرق تشرق في قريش وخزرج

ومنهم الحاج محمد راجي، وهو من شيوخ ابن فودي في علم الحديث، قد حج، ولقي علماء الحرمين واستفاد منهم. وهنأه تلميذه عبد الله ابن فودي بعد رجوعه بقصيدة منها:

هنيئًا نبيل خير بانعراج إلى حاج شهير بابن راجي

صبور فائق علماء علم الحد يث مضيئة مثل السراج

ومنهم ما لم كبر من أحفاد عم أحمد بابا التمبكتي، ولد حوالي ١٧٥٠م وتخرج من جامعة سنكري، وكان معاصرًا للشيخ جبريل بن عمر والشيخ الطاهر بن إبراهيم، وقد أخذ عنه منظومته السنوسية الكبرى، وكان من أولياء الله الكبار، وله تلاميذ وأبناء نجباء توفي حوالي ١٨٤٤م. ومن بناته السيدة عائشة التي كانت تفسر القرآن في بيت سلطان كنو بشهر رمضان، ومن أولاده أحمد وابنه إبراهيم، وكلاهما من الأعلام.

ومنهم الشيخ محمد موطأ الذي أخذ عن شيوخ كاشنه، وأخذ عنه عبد الرحمن السيوطي الذي أسس مدرسة الفقه في حارة (مدابوبكنو)، وكان الشيخ يحفظ الموطأ، لذلك اشتهر به، توفي حوالي ١٨٥٠م.

ابن فودي، ومن معه، ومن بعده:

الشيخ عثمان بن فودي المجدد الإسلامي الكبير ولد ١١٦٦هـ، وتلقى العلوم من مختلف المشايخ -كما سيأتي بيانه- ثم قام بالدعوة إلى الله ولم يزل حتى قامت دولة إسلامية عاشت مائة عام قبل دخول الإنكليز، وتوفي ١٢٣٢هـ، وله مؤلفات كثيرة، منها: «أصول الولاية» و«إحياء السنة» و«بيان البدع»، و«ترغيب العباد» و«تمييز المسلمين» و«سوق الصادقين» و«علوم المعاملة»، و«عمدة العباد» و«كف الطالبين» و«مرآة الطلاب» و«حصن الأفهام» و«المسائل المهمة» و«نصائح الأمة» و«نور الأولياء»، وغير ذلك من الرسائل الصغيرة والكبيرة..

والشيخ عبد الله بن فودي: ولد ١١٧١هـ أخذ العلم عن أخيه، وعن جملة من علماء بلاده، وتبحر في العلوم وبرع حتى لقبه معاصروه بنادرة الزمان، له من المؤلفات ما ينيف على مائتين وتوفي ١٢٤٤هـ.

ومن مؤلفاته: «ألفية الأصول» و«البحر المحيط في النحو» و«الحصن الحصين في التصريف» و«ضياء التأويل في التفسير» و«ضياء السياسة»، و«ضياء الحكام» و«مفتاح التفسير» و«مفتاح الأصول» و«نظم النقاية» و«تخميس العشريات» و«تزيين الورقات».

ومنهم الحاج **محمد الأمين الكانمي** ولد بفزان من أب عربي وأم كانمية، حج وأقام مدة بين المدينة ومصر وفاس، ثم عاد إلى وطنه. وكان من العلماء الأعلام، لم يعرف له تأليف غير قصيدة واحدة في التوسل بالأسماء الحسنى وأولها:

أيا طيب الأسماء يا من هو الله ومن لا يسمى ذلك الاسم إلا هو

عارض ابن فودي في جهاده برسائل عديدة دوَّنها الشيخ محمد بللوفى: «إنفاق الميسور». قام بالدفاع عن (برنو) و(كانم) حتى استردها من جيوش **ابن فودي** فأصبح بذلك عظيمًا على أرض برنو وكانم. وجعل سلطانًا إلى أن توفي ١٨٨١م.

وآلت إلى أولاده وأحفاده دولة برنو وكانم وهم يتلقبون بالشيخ حتى اليوم.

منهم الشيخ **محمد بللو بن عثمان بن فودي** ولد ١١٩٥، وأخذ العلم عن عمه عبد الله وكبار أخوته من أبيه، وقويت ملكته العلمية وألف كتبًا

عديدة منها «إنفاق الميسور» و«روضة الأفكار» و«مفتاح السداد». وقد اجتمع به الرائد الإنكليزي كلاباتن سنة ١٨٢٦ وعقد معه معاهدة تجارية باسم ملك انجلترا وتبادل معه الهدايا وتوفي ١٨٣٧.

ومنهم الشيخ **محمد بن جبريل بن عمر** له عدة مؤلفات لم نعثر إلا على تخميس دالية المديح لشيخه عبد الله بن فودي ومطلعها:

قل مستعينًا بالإله الماجد ... في كل أمر للحديث الوارد

ومعوذًا من كل مار مارد ... حمدًا وشكرًا للإله الواحد

الباعث الإرسال هادي من هدى

منهم **الحاج عمر الفوتي** ولد ١٧٨٧م، وهو من أحفاد المرابطين في بلاد فوتا تعلم في بلاد ثم حج ومر على مصر ومكث بالأزهر مدة ثم عاد إلى وطنه ونزل في سوكوتو عند السلطان بللو وتزوج ابنته ثم رجع إلى فوتًا وقد تأثر بأعمال أبناء فودي وحذا حذوهم في الجهاد ببلاده وأدخل قبائل بمبيرة في الإسلام، وقاوم الاستعمار الفرنسي مدة وأقام دولة إسلامية في فوتا وتوفي ١٨٦٢م.

ومنهم الوزير **غطاط بن ليم**، توزر للشيخ عثمان ولابنه محمد بللو ولحفيده علي بابا. وكان عالمًا جليلاً ومن مؤلفاته: «الكشف» و«البيان» «وأنيس الجليس في مناقب عثمان وأخيه وابنه» و«روض الجنان في مناقب الشيخ عثمان» و«المواهب الربانية في تحقيق الطريقة القادرية».

ومنهم **الشيخ راجي بن صاحب الرماد**، وهو عالم نجيب له أكثر من خمسين كتابًا، وأشهر مؤلفاته «مصباح الأفعال في علم التصريف» يقول فيه:

ومنهم **الشيخ يوسف البرناوي** تلميذ الحاج الأمين الكانمي وصاحب الجيمية الكبرى في المولد النبوي توفي حوالي ١٢٦٦هـ.

ومنهم **الشيخ أبو بكر بن الأرض البيضاء**، وهو عربي مغربي ومن الأولياء الكبار. عاصر ابن الموطأ وجرى بينهما حوادث وأخبار. وكان مهابًا عند أهل زمانه ومجاب الدعوة. ومن الذين أسسوا شعبة النحو والصرف في مدينة زاريا الشيخ شئت أبو حجي، أخذ عن الشيخ عثمان ابن فودي، وأخذ عنه الكثيرون منهم: ما لم واكي وأبو محمد.

وممن أخذوا من الشيخ عبد الله في مدينة غندر الشيخ القاضي سعد، كان متبحراً في الفقه واللغة ثم امتاز أهل غندو بمعرفة متون اللغة.

ومن النساء اللواتي نبغن في العلم والأدب السيدة حبيبة أخت مالم بكشني أخذت العلم مع أخيها عند الشيخ عثمان بن فودي ونبغت وكانت تعلم النساء.

ومن النبغاء الحاج عمر بن أبي بكر صلفا ولد ١٢٤١هـ تعلم في كنو وكبي، ثم ارتحل إلى ساحل الذهب (غانا)، وتصدى للتدريس بها وأخذ عنه عبد الله نال شيخ علماء كوماسي. ومن مؤلفاته تربيعه للزهد والوصية المشهورة في هذه البلاد، توفي ١٣٥٣هـ.

ومن الذين أسسوا الفقه المالكي في حارة مدابو بكنو:

الشيخ عبد الرحمن السيوطي، الذي أخذ عن الشيخ محمد موطا وأخذ عنه كثيرون، منهم الشيخ عمر باجومي والشيخ صالح بن بردى وأمثالهم.

ومن الذين رفعوا اسم هذه البلاد في العالم **الفا هاشم الفلاني الفوتي**، واسمه محمد بن أحمد بن سعيد الفوتى، ولد ١٢٨٣ وتعلم في بلاده، ثم ارتحل إلى الشرق وجاور الحرمين ستة وعشرين سنة، وانتهت إليه الرئاسة العلمية بالمدينة المنورة وله مؤلفات عديدة وتوفي ١٣٥٠هـ.

ومن علماء نيجيريا الذين جاوروا الحرمين الشريفين إلى هذه الأيام ولهم آثار طيبة لإخوانهم النيجريين بهما:

الشيخ موسى الكشناوي المتوفَّى ١٩٥٠م عن نيف وسبعين سنة من العمر **والشيخ أبو بكر بن حسن الكشناوي** الذي شرح كتاب «الإرشاد السالك في فقه الإمام مالك» في ثلاثة أجزاء. **والشيخ بشير بن أحمد** في مدينة مايرنو بالسودان، **والشيخ أحمد الكتاغمي** بالمدينة المنورة.

علماء بلاد يوربا:

لم نعرف من يستحق الذكر من علماء يوربا قبل تأسيس الدولة الإسلامية في ألورن، وإنما وجد في مختلف القرى والأحياء بعض أفراد من أهل الصلاح والتقوى والعبادة، ولكنهم ليسوا في المستوى العالي من الثقافة العربية والإسلامية ما يقربهم من مصاف الطبقة الراقية من علماء بلاد هوسا.

منهم **الشيخ محمد السنسي السني** عالم ربوة السنة، والشيخ محمد ينبؤ ويقال أن في ربوة السنة من الأولياء والعلماء ما يقربون من سبعة قبل مقدم الشيخ عالم.

منهم **الشيخ موسى البرنوري الأبجي** وإخوانه كالإمام متاشي وغيره.. من الذين تعهدا غرس الإسلام في واحات مختلفة من صحراء الكفر

والوثنية في بلاد يوربا. وبعد قيام الدولة الإسلامية في مدينة إلورن وجد العلماء الفلانيون والنوفايون والهوساويون وغيرهم أرضًا جديدة خصبة صالحة لغرس آدابهم وعلومهم فيها، فاندفعوا نحوها، كما أن أمراء إلورن كانوا كثيراً ما يستقدمون إلى بلادهم نخبة من أولئك العلماء ليساعدوهم في إقامة هذه الدولة الجديدة على الأسس الشرعية الصحيحة، وفي الطليعة الأولى منهم:

الشيخ أبو بكر الشهير بلقبه (بوبي) استقدمه الأمير شئت من سوكوتو، ونزل في إلورن حوالى ١٢٤٥هـ، وتصدر للتدريس بها، وأخذ عنه الكثيرون، منهم الشيخ مالك والشيخ محمود، ابنا الأمير شئت، والشيخ محمد بيغوري الفلاني الذي مدحه في قصيدة طويلة، نقتطف منها ما يأتي لنستدل بها على قدر المادح والممدوح:

فمني تحيات مزينة الحلا ... تأرَّج كالمسك المنم على الولا

لمن هو كالمصباح ضاء بليلة ... ليأوي إليه الناس طرا تسللاً

وذلك جدي أو أبي أو خوابي ... أبو بكر فوق القرون الذي علا

هو العالم الأستاذ ناوٍ بمن مضى ... من العلماء السودان مشتهر العلا

توفي الشيخ أبو بكر حوالي ١٢٧٠هـ وترك من الأولاد النجباء محمد وعلي وعثمان ومحمد الأمين إنْدَا الكبير.

ومنهم **الشيخ عبد الله الدندي الكشناوي** أخذ العلم من تلاميذ الشيخ عبد الله بن فودي وقدم إلى إلورن وتصدر بها للتدريس، وأقبل على كثير من طلبة العلم ونبغ على يديه خلق كثير إلى أن توفي ١٩٢١ عن مائة سنة ونيف.

والشيخ إبراهيم الهوساوي الملقب بقبر العلوم، وانتهت إليه الرئاسة العلميـة بعد وفـاة بوبـي وظهـرت بركاتـه للناس. وله ولد نجيب اسمه عبد الرحمن بن إبراهيم الذي تولى منصب أبيه بعد وفاته في التعليم وشرب من بحره الكثير من العلماء.

ومنهم الشيخ محمـد التاكنتي النفاوي كان تقيًا عالمًا متفننًا، وفدت إليه طلبة العلم من جميع بلاد يوربا وممن نجب على يديه في إلورن الشيخ موسى بربوة ليـلى والإمـام حبيب الله بتوري والشيخ سليمان جيجي والشيخ عبد القادر أفنسو وتوفي ١٩٠٠م.

ومنهم الشيخ محمد بيغوري الفلاني كان عالمًا متفننًا تقيًا ورعًا، نبغ على يديه عدد كثير، منهم أحمد ومحمد ابنا محمود، وأحمد بن أبي بكر، وأمثالهم من الأعيان توفي ١٩١٣م.

ومنهم الشيخ محمود بن الأمير ششت، زهد في الإمارة وأقبل على العلم حتى صار فيه بحرًا زاخرًا وهو الذي مدحه ابنه أحمد بن محمود في قصيدة منها هذه الأبيات:

ألا فـاشكروا نعمـاء ربي إلهنا ... لوالدنا مـحمـود أهل الدراية

لأن ابنه قـبلي مـحمـد اسـمـه ... حفيظ كتاب الله بين الجماعة

يجول به جولان بحري في لجج ... ليـخـرج منهـا لؤلؤًا ذا إضـاءة

واسم أخيه أحـمـد ذو جهـالة ... يخوض متون العلم روم الهداية

وبعـدهمـا سـعـد وكـان مـؤدبًا ... لأولادنا القـرآن في كل حـالة

وللشيخ **محمود تخميس** جيد على دالية المديح للشيخ عثمان بن فودي في ثلاث وستين بيتًا مطلعها:

إني خليط بالذنوب مبرقعًا ولذاك صرت عن الزيارة ممنعًا

عيناي دامت بالتشوق مدمعًا هل لي مسيرة نحو طيبة مسرعًا

لأزور قبر الهاشمي محمد

ومنهم **الشيخ موسى بربوة ليلى** كان متخصصًا في علوم اللغة ومتونها توفي ١٩٠٧.

ومنهم **الشيخ بوصيري بن بدر الدين** صاحب العسل، كان متخصصًا في النحو أخذ عنه الكثيرون، منهم الشيخ محمد الأمين السارمي وأقرانه، وتوفي ١٩١٥م.

ومنهم **الشيخ أحمد بن أبي بكر بن أكوكورو**، آخر علماء إلورن، المحققين ولد ١٨٧٠م، وأخذ العلم من الطبقة الأولى والثانية من علماء إلورن، وتعلم شيئًا من اللغة الإنكليزية وتعين وكيلاً للمالية مدة ثم استقال منها واشتغل بنشر العلم والتدريس. وهو الذي كتب عن تاريخ مدينة إلورن، وله قصائد جيدة في المدائح والتهاني والمراثي. وقد توفي ١٩٣٦م ولم يلحق غباره أحد بعده من علماء إلورن.

ومنهم **الحاج محمد الوزير البرناوي** حج مع والده عبد الله الاطركمامي وتركه في الأزهر سبع سنين، ثم رجع إلى بلاده واقتبس من جلة العلماء، وتصدر للتدريس في لاغوس وإبادن وإلورن وبدا، ثم توزر للأمير سعيد

ابن محمود مدة في مدينة بدا. وقد بعث له أحمد بن أبكر الإلوري بقصيدة يهنئه فيها لمناسبة تعيينه وزيراً:

حمدت إله العرش ربي ذا العلا ... ورافع بعض فوق بعض له القضا
صلاتي سلامي دائمين يد المدى ... على أفضل المخلوق أحمد ذي الصفا
ومن مبلغ عني لشيخي رسالة ... وزير ابن عبد الله بدّي ذي الحجا
محمدنا من زار قبر محمد ... وحج لبيت الله مكة ذي الحمى
ووافى وقد ساد الأنام بعلمه ... أقر بذاك العلم كل ذوي الحجا
ولكن هذا الماء ينكر طعمه ... سقيم وضوء الشمس تنكره العمى
ولا تعجبوا يا أهل بدا بمثل ذا ... وذلك فضل الله يؤتيه من يشا
لقومك فاعدل يا وزير ودلهم ... إلى ما يقيهم في دناهم من النوى

استمر الحاج محمد في الوزارة نحو سبع سنوات فقط، ثم استقال منها ورجع إلى الأشتغال بالتأليف والتدريس حتى أخرج نحو مائة كتاب ما بين منظوم ومنثور، وتوفي في بدا سنة ١٩٤٥م عن ثلاث وستين سنة من العمر.

ومنهم **الشيخ اللبيب محمد بن عبد القادر بن صالح** الملقب بتاج الأدب، ولد حوالى ١٨٨٥م، كان صوفيًا مجذوبًا ذا كرامات عديدة وأحوال عجيبة، وله طريقة في الأذكار والأوراد. وهو أول من حبذ الطريقة الحديثة، واستعمل في التعليم الكتب المصورة في التوضيح. وكان يخلع على من أكمل التعليم عنده لقبًا كألقاب العلماء في عصر المماليك، مثل تاج الدين

وبدر الدين وجمال الدين وزين الدين. وقد نجب على يديه عدد كثير، منهم **الشيخ زكرياء أومد والشيخ محمد كمال الدين** وتوفي ١٩٢٢.

وأما من نشروا الإسلام والعلم في أواسط بلاد يوربا بجهات (إبادن) و(إسين) فمنهم **الإمام عثمان بن أبي بكر الدندي** كان عالمًا، عابدًا، ورعا، تقيًا عمل على نشر الإسلام في (إبادن) وما حولها، وهو أول من تولى الإمام الأكبر في (إبادن) وتوفي ١٨٧١م.

ومنهم **الشيخ أبو بكر بن صاحب الكرسي**، شيخ شيوخ مدينة (إبادن)، أوفده الوالى عثمان بشورن إلى الشيخ تاكتي في (إلورن) وأتم بها دراسته وتخرج منها، ثم رجع إلى (إبادن)، وأخذ عنه جميع أهلها. وقد خرج مع جملة من تلاميذه يريدون الحج، فهاجمهم قطاع الطريق وقتل شهيدًا ١٨٧٠م عن نيف وثلاثين سنة.

ورضى الباقون من الحج بالإياب، وهم: الشيخ هارون والشيخ عبد الله ابن عثمان، والشيخ مالك بن طاهر والشيخ أمين أبو بدماص والشيخ حسن.

أما **الشيخ هارون بن السلطان** فولد سنة ١٨٣٧، وهو من تلاميذ ابن صاحب الكرسي، انتهت إليه الرئاسة العلمية بعد موت شيخه أبي بكر، ونجب على يديه الشيخ ثاني الشهير بدانيا، والشيخ بللو بن اليابس، والشيخ صالح أبو السنوسى الأكا، والشيخ سنوسي كاتبي وأمثالهم. وقد تولى منصب الإمام الأكبر في (إبادن) لمدة اثني عشر عامًا، وتوفي ١٩٣٥ ورثاه أحمد الإلوري بمرثية نقتطف منها هذه الأبيات:

لهفي على ما القلب منه تفجعا ... وما عارض الأكباد حتى تصدعا

لموت فقيه عالم متورع ... صبور صدوق مستجاب إذا دعا

وأعني به شيخ الشيوخ ومقتدى ... لدى كل مستهدي إذا الأمر أفزعا

قضى من يرجى للندى والعلى ومن ... يرجى الأماني والمعالي به معا

قضى الشيخ هارون الإمام لقومه ... ومرشدهم في جملة الأمر أجمعا

عزيز قضى نحبًا وقد كان في الورى ... من الغيث أروى أو من الليث أروعا

لقد زلزلت أرض الأبادن بأهلها ... وبيت العلا مما ألم تزعزعا

ومن الذين نشروا العلم في مدينة (إسين) الشيخ داود شيخ شيوخ زمانه، وأول من قرر تفسير القرآن في شهر رمضان بمدينة (إسين). وقد تتلمذ له عدد كثير من أهل البلاد المجاورة. وممن أخذوا منه الشيخ محمد راجي صاحب «البيان» الذي كان يحفظ تفسير الجلالين ويقرأه على الناس من حفظه، وهو مع ذلك فاقد البصر.

ومنهم الإمام صاحب «القباء» والإمام محمد الأول وأمثالهم، وتوفي الشيخ داود ١٩٠٠م.

ومن أوائل علماء لاغوس الذين عملوا على نشر الإسلام فيها الشيخ أبو بكر الذي نزح من أوكي سنة نزل بلاغوس حوالي ١٧٨٠م، وقد تولى ابنه محمد نال وحفيده محمد الغالي على إمامة جامع لاغوس.

ومن أواخر علماء لاغوس المبرزين في العلم والمستميلين إلى السياسة

الحاج أحمد شاكي المولود ١٨٩٣م والمتوفَّى بلاغوس ١٩٦٧ له حظ في العلم. ومن آثار قلمه في قصيدة له، مطلعها:

أعـــــوذ بالله من الرزايا وكل شـــيطان أبي البـــلايا

باسم الإله خـــالق البـــرايا الغـــافـــر الذنوب والخطايا

لله حـمـدى عـالـم الخـبـايا من الأمـــور الكل والجـــلايا

ثم الصـــلاة مع التـــحـــايا على النبى صـــاحب المزايا

ومنهم الحاج أبو بكر اوتون كان فقيهًا متورعًا يأكل من عمل يده، وله مكتبة جامعة لنفائس الكتب، ولد ١٨٨٦م، وحج ١٩٢٣م كان يصلي بالناس في مسجد علي بلوغن منذ ١٩٣٦م، ولم يتخلف عن الصلاة يومًا، إلى أن توفي ١٩٦٨م.

●●●

نظام الحكم والقضاء فيما حول النيجر

نظام الحكم الإفريقي القديم أرستقراطي بحت، إذ يتوارث الحكام مناصبهم كابراً عن كابر وزمام الأمر بيد الملوك، ويعاونهم أمناؤهم من كبار مواليهم المخلصين لهم، ومن رؤساء جنودهم الحارسين لمملكتهم ومن كهنتهم المشيرين لحركاتهم. أما القضاة فكبير كل عائلة قاضيها، ورئيس كل قبيلة حاكمها، وقاضي القضاة هو الملك الذي يعتبر نفسه نائبًا عن الله في أرضه.

ولكل كبير ورئيس حق سماع القضايا الصغرى في ناحيته وولايته الخاصة، أما القضايا الكبرى فإنها ترفع إلى مجلس الملك فيجتمع الأعيان لسماعها، والنظر فيها.

وليس لهم قانون مدوَّن في كتاب، إنما يحفظون في صدورهم ما يتوارثونه عن أسلافهم من تقاليد وعادات.

أما العقوبات فأولها القتل لمن قتل نفسًا بغير حق، أو كان لصًا محاربًا أو خائنًا للوطن، أو مخالفًا لأمر السلطان على سبيل الاستفزاز.

ثم النفي، وهو جزاء من استحق القتل من العظماء الذين يخشى من قتلهم الفتنة. ثم الغرامة، وهو جزاء من زنى بامرأة محصنة متزوجة، فيؤخذ ما يعدل ثلث المهر الأصلي على المرأة وتسلم الزوج الشرعي تعويضًا له عن التمتع والتلذذ بالمرأة المتزوجة. والرهان هو ما يحبسه المدينون لدائنه كأن يحبس عنده ولده ليستغله حتى يدفع ما عليه من الدين عاجلاً أو آجلاً.

هذا هو النظام السائد في جميع الأقطار الإفريقية قبل ظهور الإسلام.

ولما جاء الإسلام ودان به كثير من أقطارها عمل أمراؤها وملوكها بالنظام الإسلامي، وكان للعلماء والفقهاء دور عظيم في تبيين أحكام الله ورسوله فيما يصدر للناس في حياتهم الفردية والاجتماعية.

وعلى كل إقليم أو قطر إسلامي ملك أو سلطان يحمل لقبًا معينًا مثل: «الماي» لأهل برنو، و«المنسا» لأهل مالي، و«والزا» و«السن» و«أسكيا» لأهل سنغاي، و«سركي» لأهل هوسا. وأكثر أولئك السلاطين علماء وفقهاء، وإذا لم يكن السلطان نفسه عالمًا فقيهًا اتخذ أحد العلماء المبرزين وزيرًا يدير له الدولة على وفق الشريعة.

ولابدَّ من هيئة شورية على شكل لجنة الفتوى من كبار العلماء والفقهاء، على ما سنَّ الخليفتان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما من النظم، لذلك تلقب أكثرهم بأمير المؤمنين.

وأول من تلقَّب بأمير المؤمنين في وادي النيجر هو **محمد أسكيا الأكبر** ثم الشيخ **عثمان بن فودي** وخلفاؤه، وكان له أمراء في الأقاليم على نحو ما للخلفاء من الولاة والحكام والأمراء.

ولكل أمير في إقليمه وزير الدولة وقائد الجنود والإمام الأكبر للصلاة وقاضي القضاة وكبار العلماء وكبار الجنود وعمال الولايات.

وقد كتب الإمام المغيلي سلطان كنو كيفية ترتيب رجال الأمير في مجلسه كما وضع له وصية فيما يجب على الحكام في ردع الناس عن الحرام.

وكتب الإمام السيوطي رسالة إلى ملوك التكرور ينصحهم فيها في أمور السلطنة وأحكامها الشرعية.

وألّف الشيخ عثمان وأخوه عبد الله وابنه محمد بللو كتبًا ورسائل في شرح أمور السياسة والحكم والقضاء على ضوء الكتاب والسنة والإجماع.

وكان عليها العمل في الأقطار الإسلامية بغرب إفريقيا قبل استيلاء الإفرنج عليها، وها نحن نورد منها طائفة لتكون تبصرة وذكرى لأولي الألباب.

مجموعة المغيلي في شئون الإمارة،

كتبها لأمير كنو:

أما بعد. وفقك الله للتقوى، وعصمك من نزغات الهوى؟ فإن الإمارة خلافة من الله ونيابة عن رسول الله، فما أعظم فضلها، وما أثقل حملها، إن عدل الأمير ذبحته التقوى بقطع أوداج الهوى، وإن جار ذبحه الهوى، بقطع أوداج التقوى. فعليك بتقوى الله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

الباب الأول: يجب على الأمير حسن النية في الإمارة، ويجب على كل ذى عقل وديانة أن يبتعد عنها إلا إذا لم يكن له بد منها، فيتوكل على الله فيها ويستعين به في أمره كله، وينوى أن ينال بها رضى الله في إصلاح أمور عباد الله الدينية والدنيوية، ويعلم أن الله ما ولاّه عليهم ليكون سيدهم بل ليصلح لهم دينهم ودنياهم، ورأس كل بلية احتجابه عن الرعية.

الباب الثاني: فيما يجب على الأمير من تحسين الهيئة في مجلسه بإظهار حب الخير وأهله، وبغض الشر وأهله. وفي لباسه أن يلبس المباح للرجال

غير متشبه بالنساء، ولا مفسد لبيت المال، ولا يتزين بذهب، ولا فضة، ولا حرير.

وفي جلوسه يجب أن يجلس بالوقار والسكينة من غير عبث ولا قهقهة، مع غض البصر، والإقبال على الرعية بالحق، وأقبح القبائح كذب السلطان وإخلاف الوعد، والغفلة في أمره ونهيه. وفي دائرته بأن يقرب منه الأخيار والعلماءوالأتقياء والصلحاء والزهاد، ويبعد عنه الأشرار والجهلة والفجار. وفي قسم بيت المال بأن يؤثر رعيته على نفسه وأهله، فلا يكن عبد ثوب، ولا حصان، ولا بساط، ولامكان، ورأس كل بلية احتجابه عن الرعية.

الباب الثالث: فيما يجب عليه من ترتيب مملكته على ما يتمكن من صلاحها، لأنه راعٍ على جميعهم، وهو مسئول عنهم، ولا يتمكن على ذلك بنفسه بالنواب. فمنهم وزراء: أى الأعوان في سياسة جميع الرعية لا يخشون إلا الله.

وأئمة: يوالون على البلاد البعيدة عنه يجمعون له الناس حين يحتاج إليهم.

وقضاة: أى الذين هم تقاة يفصلون الخصومات.

ومحتسبون: أى أهل الحسبة الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر ويكشفون أمور القرية وغيرها من المجامع، ويصلحون ما فسد.

وشرط: أى أعوانه في تنفيذ الأحكام.

وخدام الحضرة: يتصرفون في حوائجه لئلا يحتاج إلى غيرهم.

وعقلاء: يشيرون له في الأمور قبل عامة الناس.

وأمناء: يقبضون الأموال ويصرفونها إلى الرعية في مصارفها.

وكتاب: حساب يحفظون جميع الأشياء.

ورسل: يكونون سفراء في بلاد الإسلام.

وجساس: يكونون عيونًا في بلاد الأعداء.

وحفظة: يحفظون الأمير في بلده نهارًا.

وعساس: يحفظونه ليلاً.

وعلماء: ثقاة في العلم والتقوى يرشدونه في جميع أموره.

وشفعاء: يشفعون من اقتضى الحال بشفاعته من ذوى المروءات إذا عثروا في التعزيرات لا في الحد والحقوق.

ومنظمون: أى الصلحاء لوجه الله تعالى.

وعمال: يجبون حق الله كالزكاة وبيت المال.

وحصن: حِرز حصين مكفي بالخزائن من طعامه وشرابه وسوقه.

وخيل: أفراس حديدة تعد من بيت المال في كل قرية يحبسها للجهاد.

وظهور: زاد يعد من بيت المال لحمل الفقراء إلى الجهاد ونحوه.

ورجال: شجعان حاضرة في كل أوان عند الأمير لأمور تعرض.

وعدد: من آلات الحرب ونحوها متينة قوية.

وأطباء: أمناء يطببون الناس لئلا يحتاجون إلى الخروج إلى غير بلاده.

وأمراء الجيوش: الذين ينوبون عنه في سد الثغور وترتيب الجيوش وحفظ بيضة الإسلام، واستعداد البلغاء الذين ينشطون القلوب ويقبحون الهروب.

وعرفاء الحروب: الذين برأيهم تتكشف الكروب، فإن الحروب خدعة، ليس بكثرة ولا سرعة، ورأس كل بلية احتجابه عن الرعية.

الباب الرابع: في التزام الحذر في الحضر والسفر، بإظهار القوة والجلد عند تغير الأحوال بالخوف، وإظهار الزهد في الصاحبة والولد لئلا يمنعه ذلك عن العدل. قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]. وإظهار الرغبة في الأبطال والعدد وحب الخروج إلى الجهاد، وبغض المقام في الديار بلا نهوض إلى الأعداء.

ومقام السلطان في داره عن رعيته هو رأس كل فتنة وضرر، فالملك بالسيف لا بالتسويف، أي لا يحصل بقوله: سوف نخرج إليهم، سوف أفعل، وهل يدفع الخوف إلا بالتخويف؟. إن كل من خوَّفك لا تسلم منه إلا بتخويفك إياه لا بالهروب منه، وطلب الصلح معه: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥] والله معكم. ويجب عليه الحذر في طعامه وشرابه وفراشه: أن لا يوليها إلا أقرب أحبائه إليه، وفي مجلسه ألا يفارق السلاح وأهل الأمانة والصلاح من الشجعان الرماة والفرسان، وليس وقت الخوف كوقت الأمان. وفي سره أن يكتمه حتى يتمكن، وفي النمامين بعدم قبول قولهم ولو كانوا أكثر من سبعين. وفي المتهمين ألا يغتر بظواهر رسل الهداية آمنهم عيونًا، وأصدقهم كيسًا: «وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون».

وفي الحصون القريبة من الأعداء أن يزيل كل حصن لم يتمكن من أن يسكن أمناء فيه، لئلا يستند أعداؤه إليه، وليخف من الحبل لئلا تلسعه الحية ورأس كل بلية احتجابه عن الرعية.

الباب الخامس: فيما يجب كشفه من الأمور التي يجهل في رعيته بالعدول والأمناء، كأمور المحبوسين والأوصياء على الأيتام، وحجر المهمل من يتيم وسفيه يأمر برفع أمره إليه، وكأمور الغياب وإرث الأموات وأمور بيت المال وأرزاق العمال على الاستبصار والورع لا على الأضرار والطمع، وكأعمال العمال وما يزيد لهم فيها من الأموال، فمن ظهر منه تقصير زجره أو ظلم عزله، أو شكوى منه أبدله إن وجد بدله، وإلا انتقد من الأمناء، ومن زاد له مال على ما يعطى أخذه وجعله في مصالح المسلمين، وإن شك فيه قاسمه، وليكن عليهم كراع الماشية بين الأسود الضارية، فمن عمال السوء جميع الفساد.

إذا كنت في أمر فقم فيه ناصحًا ... وإن تستنب فاختر خيارًا لأهله

ومن يأت بالكلب العقور ببابه ... فعقر جميع الناس من سوء فعله

عمل عاملك عملك، إن أحسن، فالثواب لكما، وإن أساء فالعقاب عليكما وكأمور المتهمين بالفساد فإن قريب التهمة بوجود علامتها، فلابد من كشفه، فإن ثبت عليه وإلا توعده وزجره بحسب قربه وبعده.

وكأمور الأعداء فلابدَّ من كشفها بالجساس الأمناء، فإن الجهل عمى وبصير واحد يغلب ألف عمى، وأعظم البلية الغفلة عن الرعية، وكذم الذامين ومدح المادحين فلابدَّ من كشفه من الأمناء.

الباب السادس: فيما يجب عليه من العدل والإحسان، فالعدل أن يوفي كل ذى حق حقه من نفسه وغيره، سواء كان الحق عليه أو على غيره من رعيته، فمن لا يأخذ للرعية حقوقهم من بعضهم ليس بعدل.

وأما الإحسان فهو أن يتفضل من نفسه، أى يزيد لكل من أراد أن يحسن عليه زيادة على حقه مما كان من نصيبه، لا ما كان من نصيب غيره، فمن كان يحسن إلى الناس بإعطائهم أكثر ما يستحقون مما لجميع الناس شركة فيه بغير إذنهم فليس بمحسن بل ظالم، لأن ما يحسن به ليس ما اختص به شرعًا، فافهم هذا الأمر ولا تهمله، ومن العدل أن يسوى بين الخصمين في جميع أمورهما، وأن لا يقبل من الشهود إلا من كان عدلاً رضى فيما لا تهمة له فيه، فإن تعذرت العدالة فعليه أن يراعى أمثلهم في الصدق مع كشف واستكثار، لا يكتفي باثنين مع السياسة والاستبصار، ثم لابدّ أن يطلع المطلوب على أسباب الطالب، ويعذر إليه إذا أراد أن يحكم على المطلوب فلابد أن يطلعه على الأسباب التي سببت الحكم عليه، ثم يعذر إليه بقوله: أبقيت لك حجة، فإن قال نعم تلوم له، وإن قال: لا حكم عليه، ثم بعد مشاورة العلماء ولا يجوز له الحكم في شيء إلا بمشهور مذهب إمامه، فإن الحكم بغير المعتمد جور وضلال يجب نقضه على كل حال، وتختص دعاوى الجنايات بأنواع السياسات.

فالجنايات كالسرقة وقتل النفس، فمن ادعى عليه بالسرقة من غير بينّة فلا يخلو من ثلاثة: قسم بعيد عما نسب إليه فلا يلتفت لدعوى المدعى بل يؤدب لأجل المدعى عليه إن كان من أهل الصلاح.

وقسم قريب من الدعوى، فلابدَّ من حبسه وتهديده وجلده بحسب

الجريمة وبعده من التقوى، ور بما يغرم بمجرد الدعوى واليمين حيث علم بمثل الدعوى واشتهر وتكرر منه، لأن شهرته بما نسب إليه صارت شاهداً للمدعى عرفيًا، ومن تكرر منه الإذاية واشتهر حبس حتى تظهر توبته أو يقبر.

وقسم مجهول الحال فلابدّ من اعتقاله، أي حبسه، وكشف الحاكم عن حاله ثم يحكم له بحكمه، وإلا أرسله بعد سياسة وتهديد، وكشف ووعيد بحسب ما يقتضيه النظر من التشديد. كل ذلك بالتقوى، لا بالهوى، وليس كل الناس سواء.

ومن ادعى عليه بنفس فلابدَّ فيه أولاً عن حبس بالحديد وكشف وتهديد، ثم إن ظهر الأمر عمل عليه وإلا نظر في قربه وبعده مما نسب إليه، فإن قرب طوّل في اعتقاله وإن بعد عجّل بإرساله. ولابدَّ للأمير الأعظم أن يجلس في كل يوم للناس بحيث يصل إليه جميع الناس، ولا يكفيه القضاة والعمال، لأن شكوى الرعية قد تكون منهم ويجب عليه أن يزجرهم وإلا فهو كسلم الدار لأربابها وكماسك قرون البقر لحلابها. وقد عزل الخلفاء العمال الصالحين بسبب الشكوى وهو أقرب للتقوى. ورأس كل بلية احتجابه عن الرعية.

الباب السابع: فيما يجب عليه من جبى الأموال من وجوه الحلال، «ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه». وملاك السلطنة هو الكف عن أموال الناس بأن لا يطلب منهم شيئًا لم يكلفهم الله به، والطمع في أموالهم خراب المملكة، فمن الأموال التي حلل الله للأمراء قبضها وصرفها:

زكاة العين والحرث والماشية والفطر والمعدن وخمس الغنيمة والركاز، وأموال الجزية والصلح، وما يؤخذ من تجار أهلها وتركة لا وارث لها،

وما أفاء الله به من أموال أهل الحرب بلا حرب. فإذا كان الأمير عادلاً في صرف مال الله وجب على من بيده شيء من زكاة وغيرها، أن يدفعه له ليصرفه وإن لم يكن عادلاً فلا يعطيه فتأمله.

ومن الأموال التي حرم على الأمراء وغيرهم كل ظلم. ومن الظلم ما يأخذه الأمير على تولية القضاء أو غيره وهو حرام بإجماع المسلمين وذريعة لإفساد الدين وفتح لأبواب الرشى وقهر المساكين، لأن الولاة يرون حين أخذ منهم المال على الولاية لابد أن يأخذوا المال من الرعية فيقهرون عصمة الله من ذلك.

ومن الظلم الرشى لسلطان وقاض وعامل، وهو أن يأخذ من أحد الخصمين أو من كليهما شيئًا قبل الحكم أو بعده. وكذا قبول الهدية من الرعية فإنه باب كل بلية.

إذا دخلت الهدية على ذى سلطان خرج عنه العدل والأمان وصار صاحبه بالخيانة.

ومن الظلم العقوبة بالمال كأخذ مال السارق والزانى وهي حرام على كل حال، إلا إذا كانت جناية الجانى متعلقة بذلك كلبن خلط بالماء، فالصدقة به حلال. ومن الظلم المكس وهو حرام بإجماع، ومن الظلم أخذ العشر أو غيره كالنصف والثلث من أرباب الحقوق والتركات، وهو حرام بإجماع المسلمين ونصوص الآيات.

الباب الثامن: في مصارف أموال الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ

يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. فيجب على الأمير صرف أموال الله في مصارفها بالكرم، لا بالبخل، فالتبذير، فالكرم هو بذل ما يحتاج له عند الحاجة المستحقة بقدر الطاقة، فمن خرج عن هذا الحد فقد تعدى وظلم ولاحظ له من الكرم، وهو: إما بخيل أو مبذر في أرزاق بيت المال. وفي كل منهما خراب المملكة على كل حال. فيجب على من كانا جبلته أن يستنيب من عطايا مملكته ثقاة -خاصة أهله- فمال الله قسمان: قسم زكاة مصارفه الأصناف الثمانية التي في القرآن ويجب صرفها في محل الوجوب ناجزاً إن وجد به مستحق، وإلا نُقلت لأقرب مكان فيه وإن كان في محل وجوبها بعضها، ونُقل للأحوج بعضها بحسب الاجتهاد، وأجرة نقلها من الفيء لا منها. ولا يجب تعميم الأصناف كلها، بل إن أخرجت لبعضها أجزأت، إلا أن تعطى للعامل فقط فلا تجزى، ويقدم الأهم فالأهم، والأحوج فالأحوج ويفضل بعضهم على بعض بقدر الحاجة. ومصرف زكاة الفطر الصنفان الأولان فقط أي الفقراء والمساكين، ولا يعطى حارسها منها.

والقسم الثاني: الفيء كخمس الركاز والمعادن والغنيمة وما يؤخذ من أهل الذمة وأهل الصلح، وما يؤخذ من تجارتها وخراج الأرضين وتركة لا وراث لها، وما أفاء الله من أموال الحرب بلا حرب، فصرف ذلك حكمه إلى الإمام يصرفه في المصالح بالتقوى، لا بالهوى، وأحق الناس بالتوسعة عليه من مال الفيء حماة الدين من قضاة المسلمين والعلماء الأتقياء المرشدين، وأهل كل بلد أحق بفيئه من غيرهم، إلا أن تنزل بغيرهم حاجة فينقل إليهم شيء منه بعد إعطاء أهلها ما يغنيهم على أرجح النظر، فإن كان

غير أهل بلد المال أحوج من أهل بلده نقل لهم الأكثر بحسب النظر. وسيرة أئمة العدل في قسم الفيء أن يبدأ الإمام بسد ما لا غنى من سده من حصن وسلاح وغيره، ثم بأرزاق العلماء والمقاتلين، ثم بالفقراء الأحوج فالأحوج، حتى يعمهم بأجمعهم من ذكر أو أنثى وصغير وكبير، فإن اتسع المال أبقى منه في بيت المال شيء لما يحدث من النوائب وبناء المساجد وفك الأسارى وقضاء الديون ومؤنة تزويج العزاب، وإعانة الحجاج، وغير ذلك من وجوه الاحتياج فهذه سنة صرف أموال الله للمسلمين ولكن الظالمين اليوم في ضلال مبين، قطعوا العدل والإحسان، ووصلوا الظلم والبهتان، فقلّت أرزاقهم، وساءت أخلاقهم، وجاءهم الموج من كل مكان.

وللمغيلي وصية أخرى لسلطان كنو المذكور، فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام، ونصها: -

من عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني إلى أبي عبد الله محمد بن يعقوب، سلطان كنو وفقه الله لما يرضاه، وأعانه على ما أولاه من أمور دينه ودنياه بجاه سيدنا محمد صلوات الله عليه وسلامه. سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد، فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة فيما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام، فاعلم أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه وحفظ ما أودعنا من شرائعه، إنه لابد من ردع المفاسد الدينية والدنيوية بالمقامع الشرعية على حسب الطاقة البشرية، ولا يجوز أن يترك مفسد على فساده، مع إمكان ردعه عنه، أو لعنه، أو حبسه، أو ضربه، أو صلبه، أو قتله، أو نفيه، أو نهب ماله، أو حرق بيته، أو غير ذلك من العقوبات الشرعية.

لكل داء دواء، ولكل مقام مقال وفعال، بحسب ما يظهر من الأحوال، فصن مقامات الخلافة النبوية عن الإهانة بردع العامة عن سوء الأدب بالأقوال والأفعال وسائر الأحوال.

ولا تصبر لمن تعمد ذلك ولم ينته، لأن ردع ذلك ومثله حق الله تعالى ورسوله، وامنع جميع أهل بلادك عن جميع أنواع الشرك وكشف العورة وشرب الخمر وأكل الميتة والدم، وغير ذلك من المحرمات، وامنع كفار بلادك من أن يظهروا ذلك بين المسلمين في الأسواق والمنازل، وغيرها من المحلات، فلو لم يتركوا إظهار شرك أو شرب خمر أو فطر في شهر رمضان، أو زنا، أو غير ذلك من المنكرات وأنواع ضلالهم، لكان ذلك ذريعة لأن يفعل مثل فعلهم ضعفة العقول من العامة والنسوان والصبيان، ولا سيما والغالب على أهل تلك البلاد الجهل والهوى وأصلهم كان كذلك. وقد قال العلماء: الرجوع إلى الأصل يكون بأدنى سبب.

فانههم عن ذلك، وأشهر إنكاره وتوعد بالعقوبة لمن فعله، ثم بعد ذلك عاقبه بأقرب شيء يردعه ويردع مثله، وإن لم يكن ردعه ومنعه من ذلك إلا بقطع يده أو رجله أو صلبه أو قتله، أو غير ذلك من الروادع الشرعية، فافعل لأنه ظالم، والظالم أحق أن يحمل عليه.

ولكن لا تفعل بالمفسد ما هو أشد في ردعه، إلا إذا رأيت أنه لا يرجع بغيره، مثال ذلك: من لم ينته من الناس من عمل الخمر إلا بنهب أموالهم أو حرق بيوتهم، أو إجلائهم، أو بيع الكفار منهم، أو غير ذلك فافعله ولا تبال. ومن لم يستر أمته أو عبده ولم ينته إلا ببيعه عليه أو بأخذه منه فافعل ولا تبال، وكذلك من يغش بمسحات ناقصات وأبى أن ينتهي عن

المعاملة بها فخذها منه واجعلها في مصالح المسلمين. وأما من لم يغش بها ولا أبى أن ينتهي فمره بإصلاحها إن أراد المعاملة.

وكذلك من يتلقى ما يأتى للسوق من طعام وغيره فيشتريه قبل وصوله للسوق أو بعد وصوله، وبيعه على يده، وإن لم ينتهوا إلا بنفيهم أو نهب ذلك منهم فافعل، لأن مقصد الشارع في الروادع درء المفاسد وجلب المصالح بحسب الإمكان في كل زمان ومكان. وليس الخبر كالعيان، ولذلك قال الإمام العادل عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه: «تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور»، فلابدَّ من إزالة الفساد على كل حال. وإن تعارضت مفسدتان إحداهما أكبر من الأخرى فدرء المفسدة الكبرى أولى. وهذا الذي بيَّنا لك يكفيك إن شاء الله في تلك المناكر وغيرها..

وإن الناس في حكم الله ورسوله سواء فلا تخرج من ذلك عالمًا ولا عابدًا، ولا شريفًا ولا أميرًا، وأقم حق الله على جميع عباد الله بالتقوى، لا بالهوى.

ومن عارضك في شيء من ذلك فعاقبه بما فيه ردع له ولمثله، وإن لم يكن إلاّ بقطع يده أو رجله أو أنفه أو صلبه فافعله ولا تبال، ولكن بعد ثبوت وتثبت في ذلك كله، ومقابلة كل واحد بما يليق به، بحسب حاله من الخير والشر والتواضع والطغيان، فتصرف في ذلك بالزيادة والنقصان حتى يعتدل الميزان، وليس الخبر كالعيان، والله المستعان، وعليه التكلان. وفي هذا القدر كفاية لمن سبقت له العناية. وكلما نوصيك به من أمر دينك ودنياك تعرف ذلك وإذا نسيت شيئًا منه فلا تنس أن من غير حكم الله فقد كفر،

ومن تغير حكم الله ودينه أن يكون الظالم قاضيًا، لأنه يحكم بالظلم وهو يقول: هذا هو الشرع، ومن فعل ذلك فهو كافر لأنه صير الباطل حقًا، والحق باطلاً. فإن كان لابد أن تجعل بعض الظالمين حاكمًا فلا تجعله باسم القاضي، فإن القضاء من صفات رسول الله لا يوصف به إلا عالم تقي لا يأخذ الرشا، ولا يحكم بالهوى.

الله، الله، الله. وهذه الوصية هي أوكد جميع الوصايا إما يكفيك أن تظلموا باسم السلطنة فتكونوا مذبذبين ترجون رحمة الله ثم تظلمون باسم الشرع، حتى تكونوا كفاراً، والكافر لا نصيب له من رحمة الله، فطهر مقام الشريعة من خبث لأنه مقام رسول الله، لعل الله أن يغفر لك ذنوبك جميعًا، والسلام على من اتبع الهدى.

وكتبه ٨٩٧هـ.

ومن هذا النوع والقبيل رسالة الإمام الحافظ السيوطي إلى أمراء بلاد التكرور عمومًا، وإلى سلطان كاشنه خصوصًا، ونصها كالآتي:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

من الفقير عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي إلى الملوك والسلاطين في بلاد التكرور عمومًا، وإلى الملك الزاهد محمد بن صطفوا صاحب اكدز وإخوته محمد وعمر وابن أختهم محمد بن عبد الرحمن، وإلى الملك إبراهيم صاحب كاشنه خصوصًا: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما بعد، فأحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه محمد ﷺ، ثم أوصيكم بتقوى الله عز وجل فإنها رأس الأمر وسنامه، وقد فاز وأفلح من كان بها اعتصامه، واحتكموا على العدل بين الرعية والوقوف عند حدود الأحكام الشرعية، ولا يغرن امرءاً منكم ما آتاه الله من الملك والسلطنة، وما خوله من زينة الحياة الدنيا، فإنما الدنيا كلها سنة منام ولا بد أن يستيقظ من السنة، وقد بلغني من أحدكم أنه يذكر له الحكم الشرعي في واقعة المحكوم عليه ويضمه إليه ويحصنه، ويحول بينه وبين صاحب الحق ويحضنه، ويقول:

هذا دخل في ملكي أو جعل في سلطاني، ويرد ما حكم به الشارع اغتراراً بالأماني، أفلا يخشى أحدكم من ملك الملوك أن يحل به العذاب الأكبر أو ينزل عليه سخطه في الدنيا قبل أن يقبر: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]. أيغتر أحدكم بملكه الذي هو كقطرة. ويريد أن يلغى حكم الله بإقامة ناموسه الذي لا يساوى عند الله جناح ذبابة؟: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦]. أو يدكدك عليكم ما بين طولها والعرض قال النبي ﷺ: «**السلطان ظل الله على الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده وإذا عدل كان له الأجر، وعلى الرعية الشكر، وإذا جار كان له الإصر، وعلى الرعية الصبر**».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «ماذا قلت يا رسول الله عن السلطان الذي ذلت به الرقاب وخضعت له الأجساد ما هو؟. قال: **ظل الله تعالى في أرضه فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الصبر**». وقال أيضًا:

«صنفان من أمتي لن تنالهما شفاعتي سلطان ظلوم غشوم وغال مارق في الدين».

وعنه أيضًا: «ما من أحد يؤم على عشرة فصاعدًا إلا جاء في الأصفاد والأغلال».

وفي لفظ: «إلا أتى به يوم القيامة مغلولة يداه يفكه العدل ويوبقه الجور».

وقال أيضًا: «من ولي عشراً فحكم بما أحبوا وكرهوا جيء به مغلولاً يده فإن عدل ولم يرتش ولم يجر فك الله عنه، وإن حكم بغير ما أنزل الله وارتشى وجار شدت يساره إلى يمناه ثم ألقى في قعر جهنم فلم يبلغ قعرها خمسمائة سنة».

وقال أيضًا: «إذا كان يوم القيامة أتى بالوالي فيوقف على جسر فيأمر الله الجسر فينتفض انتقاضة يزول كل عظم من مكانه، فيأمر الله العظام أن ترجع إلى مكانها ثم يسأله، فإن كان مطيعًا أخذ بيده فأعطاه كفلين من رحمته، وإن كان عاصيًا خرق به الجسر يهوى به في جهنم مقدار سبعين خريفًا».

وقال أيضًا: «ستة لعنتهم ولعنهم الله، وكل نبي مجاب الدعوة، المكذب بقدرة الله، والزائد في كتاب الله، والمستحل من عترتي ما حرم الله، والمسلط بالجبروت ليعز ما أذل الله ويذل ما أعظم الله، والمستحل لحرم الله والتارك لسنّتي».

وقال أيضًا: «ما من أحد يكون على شيء من أمور هذه الأمة فلا يعدل بينهم إلا كبّه الله في النار». وقال أيضًا: «أهل الجور وأعوانهم في النار».

وقال أيضًا: «أشهد الله على الوالي من بعدي لما رق على جماعة المسلمين، ورحم صغيرهم وأجل كبيرهم، وأعطى عمالهم لا يضرهم فيخذلهم، ولا يحصرهم فيقطع نسلهم، ولا يغلق بابه دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم، ولا يجعل المال دولة بين الأغنياء منهم، ألا هل بلغت، اللهم اشهد». وقال أيضًا: «إن المقسطين عند الله يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش، هم الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا».

وقال أيضًا: «عدل ساعة خير من عبادة ستين سنة قيام ليلها وصيام نهارها، وجور ساعة أشد وأعظم عند الله من معاصي ستين سنة».

وقال أيضًا: «السلطان ظل الله في أرضه فمن غشه ضل ومن نصحه اهتدى، ولذلك بذلت لكم النصيحة، وبلغتكم ما جاء عن رسول الله ﷺ من أحاديث النصيحة، فأقيموا السلطنة بعدلها، وأدوا الأمانة إلى أهلها. ومما ينص عليكم بالخصوص قضية الحاج محمد الترجمان مع عبده الذي حاد عن الحق، وحكم عليه القاضي محمد بن عبد الكريم بأنه باق في رقه، وأمر بأن يسلم إلى مستحقه، فأعنتم بعد على الباطل وجعلتم حكم الشرع كالعاطل، فتوبوا إلى الله من هذه الموبقة. ولا يحول بين السيد وعبده إلا أن يكاتبه أو يعتقه، وقد بلغني أن محمد بن مريم أقلع عما كان عليه وتاب ورجع إلى الله وأناب، هذا هو الذي يعتقه في المآب.

وبلغني من أهل (غوبر) أن منهم من إذا مرض ذبح عبدًا له أو أمة، ويزعم أن ذلك يفديه من الموت فما أكفره فيما صنعه وفيما زعمه، وهذا ما يسوله الشيطان ويزينه من العدوان، ومما يؤول به صاحبه إلى الكفران، فيعلم من بعد ذلك أن الله بريء منه ورسوله.

وليس هو يبلغ بذلك مناه وسؤله، ولو أعتقه لكان أقرب إلى الفداء بعيداً عن الاعتداء. فمن عرض له أمر فليعرضه على حملة الشريعة، ويسأل عالماً يوثق بعلمه ويجب عليه أن يطيعه: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]. لقد أثبتنا هذه النصوص الناطقة برسوخ قدم الدين ودولته، وسمو مكانة العلم والعلماء في هذه البلاد قبل هجوم المستعمرين عليها، فجعلوا يحاربون الإسلام ودولته والعربية وثقافتها بكل سلاح وعتاد.

من هو المغيلي؟

هو الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني، وهو من أعلام الإسلام في القرن التاسع الهجري. كتب عنه صاحب «البستان في ذكر علماء تلمسان»، وأحمد بابا في «تطريز الديباج» وذلك أنه من علماء تلمسان، وقد خرج منها لواقعة حدثت بينه وبين اليهود هناك، وارتحل إلى بلاد السودان ودخل مدينة (تكدة) ومكث فيها، وأخذ عنه علماؤها ثم جاء إلى مدينة (كشنه) واجتمع بسلطانها وانتفع به أهلها، ثم جاء إلى مدينة (كنو) وتولى القضاء والإفتاء بها، وأخذ عنه علماؤها، ونزل ضيفًا على (أسكيا) محمد وكتب له فتاوى دينية ووصايا سياسية. وقد اجتمع هو بالإمام السيوطي في بلاد السودان في (كاشنه) أو في (تكدة) أو في (تمبكتو) وجرى بينهما مناظرة في تحريم المنطق من جانب السيوطي، وفي تحليله من جانب المغيلي. وسنوردها هنا للتسجيل نقلاً عن «تطريز الديباج». توفي المغيلي في مدينة (توات) سنة ٩٠٩هـ رحمة الله عليه.

ومن هو السيوطي؟

أما الإمام السيوطي فهو الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ولد في مصر ٨٤٥، وطلب العلم بها، ثم ارتحل لطلبه إلى الحجاز والشام واليمن والهند والمغرب والتكرور، كما كتب عن نفسه في: «حسن المحاضرة»، ويقال إنه مكث في كاشنه وأكدز وكنو ثم رجع إلى مصر وتصدر للتدريس بها من ٨٧٦ حتى توفي ٩١١هـ. وقد ترك ما يزيد عن ستمائة كتاب في مختلف الفنون.

يقول المغيلي:

سمعت بأمرما سمعت بمثله ... وكل حديث حكمه حكم أصله

أيمكن أن المرء في العلم حجة ... وينهي عن الفرقان في بعض قوله

هل المنطق المعنى إلا عبارة ... عن الحق أو تحقيقه حين جهله

معانيه في كل الكلام فهل ترى ... دليلاً صحيحًا لا يرد لشكله

أرنى هداك الله منه قضية ... على غير هذا تنفها عن محله

ودع عنك ما أبدى كفور وذمه ... رجال وإن أثبت صحة نقله

خذ الحق حتى من كفور ولا تقم ... دليلاً على شخص بمذهب مثله

عرفناهم بالحق لا العكس فاستبن ... به لا بهم إذ هم هداة لأجله

لئن صح عنهم ما ذكرت فكم هم ... وكم عالم بالشرع باح بفضله

فأجابه السيوطي بقوله:

عـجـبت لنظم مـا سـمـعت بمثله ... أتانى عن حـبـر أقـر بنبله
تعـجب منى حين ألفت مـبـدعًـا ... كـتـابًا جـمـوعًا فيـه جم بنقله
أقـرر فـيـه النهي عن علم منطق ... ومـا قـاله من قال من ذم شكله
وسـمـاه بالفـرقـان يا ليت لم يقل ... فـذا وصف قـرآن كـريم لفـضله
وقـد قـال مـحـتـجًا بغيـر رواية ... مقـالاً عـجيبًا نائيًا عن مـحله
ودع عنك مـا أبدى كفور وبعد ذا ... خذ الحق حتى من كفور بختله
وقد جاءت الآثار في ذم من حوى ... علوم يهـود أو نصـارى لأجله
يجـــوز به علـمًـــا لديه وإنه ... يعـذب تعـذيبًـا يليق بفـعله
وقـد منع المختـار فـاروق صـحبـه ... وقد خط لوحًا بعد توراة أهله
وكم جـاء من نهي اتبـاع لكافـر ... وإن كان ذاك الأمر حقًا بأصله
أقـمت دليـلاً بالحـديث ولـم أُقم ... دليلاً على شخص بمذهب مثله
ســلام على هذا الإمــام فكم لـه ... لديَّ ثناء واعـتـراف بفـضـله

●●●